نصوص مختارة لشبلي الشّمَيِّل

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

في المادّة والقوّة

إنّ العالِم الطبيعيّ، والحاسِب الرياضيّ، والعامِل الميكانيكيّ أقصر كلامًا، وأفصح بيانًا، وأبسط أسلوبًا، وأثبت حُجَّة وأصدق كذلك من الأديب اللغويّ، والعالِم اللاهوتيّ، والفيلسوف المنطقيّ، وسائر علماءالجدل الكلاميّين، لأنّه أَلِفَ البرهان الطبيعيّ الرياضيّ الذي لا يقبل المغالَطة والتمويه.

[...] لا حاجة بنا إلى أن نعرّفك أنّ العلم قد توصّل، في الأمور الطبيعيّة، إلى هذه النتيجة الكبرى، وهي أنّ القوّة والمادّة لا تنفصلان البتّة. ولا أظنّك تستطيع أن تعرّفنا بمادّة مجرَّدة عن كلّ قوّة أو حركة، أو تطمع أن تُبيِّن لنا قوّة أو حركة مجرَّدة عن كلّ مادّة. فالقوّة لا تُعرَف إلاّ بالمادّة. فلا تُدرَك الواحدة بدون الأخرى. لنتصوّرْ أدّق الدقائق المرَكَّبِ الجسمُ منها خاليةً من كلّ قوّة، أي من رباطِ قوّتَيِ الجذب والدفع، الذيّ يتكفّل بحِفظها ويؤلِّف صُوَر الأجسام. ولنفرضْ أنّ قوى الأُلفة قد زالت. فماذا ينبغي أن تكون النتيجة؟ ألا يَلزَم أن تَدخُل المادّة في عدم لا صورة له؟ ولا يُدرَك؟ على أنّا لا نعرف في عالم الطبيعة جوهرًا فردًا بلا قوّة، فهو إنّما يَظهَر بفعل القوّة فيه، تارةً على صورة، وطورًا على صورة أخرى، وآونةً مركَّبًا من أجزاء متشابهة وأخرى من أجزاء متباينة. ولا يسطتيع العقل أن يتصوّر المادّة بلا قوّة، فإنّا إذا تصوّرنا مادّة أوّليّة مهما كانت، فلا بدّ أن تكون دقائقها تحت فعل الجذب والدفع، وإلاّ فإنّها تتلاشى من ذهننا. كذلك القولُ بلا مادّةٍ فارغٌ ولا أساس له. وإذا كان مِن المقرَّر أنّ القوّة لا تقدر أن تظهر إلّا بالمادّة، فلا تكون القوّة إذًا سوى الصفة المتّصلة بالمادّة. وكلّ صفات المادّة كائنةٌ فيها جوهريًّا، إلاّ أنّها قد لا تظهر، فتكون هاجعة فيها، أي في حالة السكون. فالقوّة في المادّة تُنبَّه تنبيهًا، لا أنّها تَحُل فيها حلولًا جديدًا. فالمغناطيسيّة مثلًا لا تنتقل من جسم إلى آخر كما ربمّا يُتوهَّم، وإنّما تُهيَّج فتَظهَر بتغيير حالة دقائق الجسم المتهيِّجة فيه، فهي متّصلة بأجزاء الحديد وهي، في قضيب ممغنَط مثلًا، متجمِّعة في المكان الذّي لا تَظهَر فيه، أو تظهر فيه قليلًا.

لنتصوَّرْ، إذا أمكن، كهربائيّة أو مغناطيسيّة بلا الحديد ولا الأجسام التّي رأينا ظواهرها فيها، ولنَفرِضْ أيضًا الأجزاء التّي نِسبها المبتادَلة وأوضاعها الجوهريّة هي بالحقيقة أسباب الظواهر الكهربائيّة والمغناطيسيّة، فلا يبقى، والحالة هذه، سوى تجرُّدٍ لا صورةَ له وعلمٍ لا معنى له بحدّ نفسه، وإنّما نتذكّر به جملةَ ظواهرَ خصوصيّةٍ معلومة، لأنّه لو لم تكن أجزاءٌ قابلة لأن تتكهرب لم يكن كهربائيّة ولما استطعنا، بواسطة التجرّد وحده، أن نعلم عنها شيئًا، أو أن نتصوّرها ولم يكن لها وجود لولا هذه الأجزاء. فكلّ

الأجسام المسمّاة عديمة الوزن، كالحرارة والكهربائيّة والنور والمغناطيسيّة وغيرها، ليست شيئًا آخر سوى تغيّرات مادّيّة، أي تغيّرات في وضع الدقائق المؤلِّفَةِ المادّةُ منها. فالحرارة والنور والصوت إنّما هي اهتزازات ارتجاجيّة في الأوّلَين وتموّجيّة في الأخير. والظواهر الكهربائيّة والمغناطيسيّة تَتِمّ بتغيّرات نسبيّة في أجزاء المادّة وجواهرها الفَردة. ولأجل ذلك عرّف العلماء القوّة بأنّها خاصّة من خصائص المادّة، أو هي الحركة، أو هي حالة من حالات المادّة، وأنّه يستحيل إدراك القوّة بلا مادّة، كم أنّه يستحيل البصرُ بلا عَين أو الفكرُ بلا دماغ أو القول بقوّة مُفرِزة بلا غُدّة، أو بقوّة انقباضيّة بلا ليفة عضليّة. فلا شيء أمكَنَه في زمان من الأزمنة أن يدلّنا على وجود قوّة سوى التغيُّرات التي ندركها في الأجسام بواسطة حواسّنا. وعلى هذه التغيّرات المرتَّبة حسب نِسَبِها والمسمّاةِ أسماءً مختلفة يُطلَق اسم الجنس "القوّة". وليس سوى هذه الواسطة لفهم المعنى المُراد بهذه اللفظة. فما هي إذًا النتيجة الكبرى الفلسفيّة لهذه المعرفة البسيطة الطبيعيّة؟

لا شكّ أنّ الذيّن يقولون بوجود قوّة أبدَعَت العالَم من لا شيء لا يستندون في قولهم هذا إلى شيء من العلوم الطبيعيّة والفلسفة العمليّة التيّ تَتْبَع العلم في سَيْرِه، وتتغيّر مع تغيّر الأفكار بتغيّره، وإنّما يفعلون ذلك انقيادًا لفلسفة موهومة نشأت عن نُقصان الاختبار في سالف الأزمان، ورَسَخت في العقل حتّى كادت تكون ثابتة، فاعتُبِرت غريزيّة. وحُجّتهم الكبرى هي أنّه لا بدّ لكّل معلول من علّه. وقد فاتهم أنّه في هذا الدور المتسلسِل لا بدّ لهم من الوقوف عند نقطة يُثْبِتون فيها حصول الوجود المعجزة. إلّا أنّهم عِوَضًا عن أن يقفوا فيه عند حدّ الأبحاث الطبيعيّة المؤيَّدة بالاختبار ويُثبِتوه للمحسوس، يَطفِرون به إلى ما وراء الطبيعة، ولو فاتهم الدليل ونَقَصهم البرهان. فمن أين عَرَفوا أنّ القوّة قد توجَد مجرَّدة عن المادّة؟ والحال أنّ المادّة لا تنفصل عن قواها. أم كيف جاز لهم التصديق بوجود شيء من لا شيء. وهل ضلال أشدّ من هذا الضلال على العقل؟ فتكوُّن العالَم من العدم أمرٌ مستحيل لا يقبله العقل ولا يُثْبِته الاختيار، والعدم لفظة لا معنى لها. ومن المقرَّر أنّ المادّة دائمة الوجود لا تتغيّر، وهذا يقتضي كونها قديمة. ولو فرضنا وجود قوّة مُبدِعة لمَا أمكن وجودها باعتبار الزمان، لا قبل الخلق ولا بعده. لا قبل الخلق لأنّ ذلك يقتضي بقاءها مدّة من الزمان بلا عمل، وفي حالة السكون، أمام المادّة اللاصورة لها والساكنة أيضًا، وهذا غير سديد. ولا بعدَه لأنّ هذا ظاهرُ البُطلان. فإذا كانت القوّة المبدِعة لا تقدر أن توجَد قبل الأشياء ولا بعدها، وإذا كانت المادّة لا تَدثُر، وإذا لم تكن مادّةٌ بلا قوّة ولا قوةٌ بلا مادّة، فلا شكّ أنّ العالم قديم. فما لا ينفصل لم يكن منفصلًا، وما لم يَدثُر لم يُبدَع".

شبلي الشميّل،

"في المادّة والقوّة" من **الحقيقة وهي رسالةٌ تتضمَّن ردودًا لإثبات مذهب دارون في النشوء والارتقاء** في **المجموعة**، الجزء الأوّل، **فلسفة النشوء والارتقاء**، (الطبعة الأولى ١٩١٠)، طبعة جديدة، ، بيروت، دار مارون عبّود، ١٩٨٣، ص ٢٦١-٢٦٤.

###

ديباجة الكتاب [كتاب فلسفة النشوء والارتقاء]

يشتمل هذا الكتاب، أوّلًا، على مقالات في مذهب دارون في أصل الأنواع وتحوُّلها. طُبِعَت باللغة العربيّة أوّلًا سنة ١٨٨٤ تحت اسم "شرح بُخنر على مذهب دارون".

ثانيًا، على كتاب الحقيقة المطبوع أوّلًا سنة ١٨٨٥، والمُشتمِل على مباحث لتأييد هذا المذهب ردًّا على الذين تعرَّضوا لنفيه على إثر نشر الطبعة الأولى من الشرح المذكور.

ثالثًا، على مباحث ومناقشات علميّة في الحياة لإثبات الرأي المادّيّ نُشرَت في "المُقتَطَف" قبل التاريخ المذكور وبعده.

رابعًا، على مقدّمتَين ضافيتَين إحداهما نُشرَت مع الطبعة الأولى من شرح بُخْنِر في ذلك الحين، والثانية وُضِعَت حديثًا للطبعة الثانية اليوم.

خامسًا، على خاتمة في خلاصة ما تقدَّم نظرْتُ فيها نظرًا خاصًّا إلى علوم الإنسان وفلسفته من حيث نشوءُها وتحوّلها وحقيقتها وتأثيرها في أخلاقه وأفكاره وأمياله وأفعاله وسائر أحواله الاجتماعيّة من عهد التمدُّن اليونانيّ القديم إلى اليوم.

وقد أَطلقْتُ عليهِ اسم "فلسفة النشوء والارتقاء" لأنيّ لم أقتصر فيهِ على النظر التقريريّ البسيط من حيث نشوءِ الأحياء وتسلسلها بعضها من بعض، بل أطلقْتُ نظريّتهُ على الطبيعة كلِّها، من جمادٍ ونباتٍ وحيوان، من حيث أصلها وتحوُّلها ونسبتها بعضها إلى بعض، مبيّنًا أنّ هذا الكلّ المشهود مترابطٌ ترابطًا لا ينفكّ في كلّ صورهِ وأفعالهِ، سواءٌ في الطبيعة الصامتة، أو في الأحياء النامية، أو في الحيوان الأعجم، أو في الإنسان الناطق. موضحًا أنّ القوى الفاعلة في كلّ ذلك كالموادّ الداخلة فيهِ من أصل طبيعيّ واحد، متحوِّل إلى ما لا حدّ له، بحيث إنّ الأفعال الظاهرة في أعلى سُلَّمِ هذا التحوّل، كما نشاهدها اليوم، ليست إلّا تلك الأفعال البسيطة كامنة في أدنى هذا السُّلَّم متدرِّجة فيهِ، وهي لا تنتظر حتّى تظهر بأسمى مظاهرها ارتقاءً وأعظمها شدّة، إلّا توفُّر شرائط معلومة لو فقدَتْها، بعد ذلك، لعادت إلى بسائطها عملًا بناموس الاقتصاد الطبيعيّ الذي يقتضي أنّ كلّ شيء في الطبيعة منها وبها وإليها. مستندًا في كلّ ذلك إلى العلم الاختباريّ المحسوس. وذلك لبلوغ الحقيقة المنشودة في كلّ زمان من الطريق الوحيد المُوصِل إليها، والتي تلمَّسَها الإنسان في كلّ أطوارهِ في التاريخ من غير سبيلها، فَضَلَّ عنها، ولم يهتدِ إليها إلّا من عهد قريب جدًّا. متوخّيًا من كلّ ذلك المنفعة العمليّة، لعلَّ الانسان يشيد اجتماعهُ على أساس متين، عالِمًا أنّ أقلّ شيء في الطبيعة قد يكون فيهِ أكبر نفع لهُ، فلا يحتقر شيئًا، بل يعتدُّ بكلّ شيءٍ، ويصرفهُ إلى غرضهِ، ويسترشد بنواميس الطبيعة، فيتحدّاها في توخّي المنفعة المشتركة التي لا تكون المنفعة الذاتيّة بدونها إلّا ناقصة، وقد تنقلب إلى الضدّ، فيتضافر عن علم لتوفير هذه المنفعة من مصادرها الطبيعيّة، لا لتمزيق بعضهِ بعضًا كما هو جارٍ حتّى اليوم، لاعتماده على ما سوى الطبيعة، أو لسوء فهمهِ لنواميسها في نظامها، لأنّه إذا كان نظام الطبيعة أساسهُ تنازع البقاء القاضي بالتنازع الشديد بين عناصر الكائنات جميعها، من أصغرها إلى

أكبرها، ومن أحقرها إلى أعظمها، عملًا بناموس محبّة الذات أو الأنانيّة التي تَطلب النفع الخاصّ، والمنتشرة في عمومها، وغير المقتصرة على الأحياء فقط كما قد يُظَنُّ توهّمًا، إلّا أنّهُ يُوجَد ناموس أرقى ينقل هذا التنازع من بين الأفراد المنعزلة، بناءً على ناموس التكافؤ والتكافل، مرتقيًا إلى الجماعات المنضمَّة في مصلحة واحدة، إلى أن يشمل الجنس كلّهُ عسى أن يتهيّأ للإنسان الفوز التامّ على الطبيعة، إذا فَهِم هذا الإنسان الكلّيّ مصلحتَهُ الكبرى، من وراء ذلك، كما يجب أن تكون.

ولم يَكُنْ ذلك متيسّرًا لهُ، حقيقةً، قبل خمسين سنة، أي قبل اكتشاف مذهب النشوء والارتقاء على المبادىءِ التي قرَّرها داورن في مذهبِهِ، لأنّهُ لم يكن يعلم حقيقة نسبته إلى هذه الطبيعة، ولا نسبة الطبيعة بعضها إلى بعض، ولم يكن يقدِّر النواميس الطبيعيّة حقَّ قدرها في ذلك كلّهِ.

ولمّا قمْتُ أبثُّ مبادىء هذا المذهب بيننا، ولا سيّما ما بُنِيَ عليهِ منذ سنة ١٨٧٦، ولم يكن لهُ أتباع ولا مؤلَّفات في اللغة العربيّة، بل كان أنصارهُ، حتّى في أوربّا نفسها، لا يتجاوزون عدد الأصابع وكان خصومُهُ، حتّى من العلماء أنفسهم، يفوقون حدّ الحصر. فلم يكن سوى داورن، رجل القرن الماضي الأعظم، الذي نظر إلى الجهة العلميّة فقط، ليقرّر تكوُّن الأنواع في الأحياء بالتحُّول والارتقاء من أصول قليلة لم يتعرّض لكيفيّة نشوئها الأصليّ، وسوى أنصارهِ هَكْسْلِي وبخنر وهكل الذين وجدوا حالًا في هذا المذهب مسندًا علميًّا قويًّا للعلم المادّيّ، والفلسفة المادّيّة. وسوى سبَنْسِر الذي شاد عليه علم السوسيولوجية، وتوسَّع فيه إلى أقصى ما ترمي إليه نظريّاتهُ الكبرى. وقد دامت نار الحرب بين العلماء في أوروبّا مُسْتَعِّرَةً أخذًا وردًّا، ونفيًا وإثباتًا، ودحضًا وتأبيدًا، من سنة ١٨٥٩ إلى حوالي سنة ١٨٩٠، والعلماء يدخلون في هذا المذهب أفواجًا حتّى يُقال اليوم إنّ الفوز قد استتّب لهُ في كلّيّاته، واقتصر الخلاف بينهم على مسائل جزئيّة بسطًا وبيانًا فقط، كما في كلّ علم مقرَّر، وعمَّ أيضًا حتّى أُطلِق على كلّ الكون، على العالَم المادّيّ، وعلى العالَم المعنويّ. على العالَم الطبيعيّ وعلى العالَم الأدبيّ، بحيث لا تمرّ اليوم بالإنسان مسألة جليلة أو حقيرة، اجتماعيَّة أو علميَّة أو فلسفيَّة، إلّا وتجد لها في هذا المذهب حلًّا في كيفيّة نشوئها وتحوّلها، حتّى مصيرها أيضًا. وكان ذلك عونًا كبيرًا لتعزيز العلم الطبيعيّ، ودعامة قويّة للفلسفة المادّيّة في الكون.

ومن أوّل ما طرقْتُ هذا المذهب، طرقْتُهُ من هذه الجهة القصوى في مباحث مختلفة نُشِرَ بعضها في الجرائد، وأكثرها في مجلّة المقتطف حتّى سنة ١٨٨٤، حيث نشرْتُ أصل هذا الكتاب أوّلًا تحت اسم "شرح بخنر على مذهب دارون".

وقد أحدث نشرُهُ، يومئذٍ، لَغْطًا عظيمًا مع أنّه لم يُطبَع منه إلّا خمسمائة نسخة لم تنفد إلّا بعد خمس عشرة سنة– لَغْطًا كان قليلهُ من الخاصّة المعدودة، فقاموا ينفونهُ كلّهُ، أو بعضهُ، كلٌّ على قدر علمهِ أو حسب هواهُ. وكثيرهُ من العامّة الذين أكثروا من الجلبة عن سماع، لا عن مطالعة، لأنّهم سمعوا أنّ فيهِ مساسًا بأعزّ شيْءٍ لديهم هم عليه حريصون عن إرث وعادة، لا عن تدبّر وروية.

على أنّ هذه الرجَّة، التي حصلت حينئذٍ، هي المقصودة منّي في ذلك الحين لإيقاظ الأفكار من نومها العميق. والحركة، مهما كانت، خير من السكون. ومَن منّا، نحن الشرقيّين اليومَ، أَوْلى بهزَّةٍ تصل فينا إلى أعماقنا، وقد تقادمَ علينا السَّبات، حتّى بتنا في رتبةٍ في صفّ الاحياءِ، لا هي بالميتة فتُدْفَن جثّة هامدة، ولا هي بالحيّة فتُبعَث بشرًا سويًّا.

وأنا التمس العذر مِن علمائنا اليوم، وفي مستقبل الأيّام، إذا لم يتيسّر لي بسط هذا المذهب بسطًا علميًّا كافيًا وافيًا، كما هو مبسوط في مطوّلات علماء الغرب لأسباب لا تخفى عليهم في مثل أحوالنا عمومًا، ولا سيّما أنّ علمي بذلك محدود، وما هو إلّا نقطة مُستقاة من بحارهم. ولكنّي إذا كنت قد قَصَّرْتُ في بسط جزئيّات هذا العلم بالتدقيق الكلّيّ لعذر وغرض أيضًا، إلّا أنّي أقدر أن أوكّد لهم أنّي من جهة كلّيّاتهِ ومَراميهِ، لم أدّخر وسعًا في إبلاغها إلى اقصاها صحّةً ومرمًى. وإذا لم أرتفع فيها فلا اتّضع إلى القول بأنّي قصَّرْتُ فيها عنهم. لعلَّ ذلك كلّهُ يمهّد السبيل لنوابغنا، فينهضوا إلى مباراة أعظم علمائهم، ولا أقول فلاسفتهم، لأنّ الفلسفة وإنْ كان لا يزال لها بعض معنى اليوم، فإنها ستصبح مبتذَلَة في مستقبل الأيّام. فالمستقبل اليوم للعلم، وللعلم العمليّ وحدَهُ فقط.

مصر في ١٠ أبريل سنة ١٩١٠

الدكتور شبلي شميّل

شبلي الشّمَيِّل،

"ديباجة الكتاب [كتاب فلسفة النشوء والارتقاء]" في **كتاب فلسفة النشوء والارتقاء**، طبعة جديدة (الطبعة الأولى ١٨٨٤)، بيروت، دار مارون عبّود، ١٩٨٣، ص أ– د.

###

في أصل معرفة الإنسان

إنّ من الأوهام الّتي تقاضَتِ الإنسان حياتَه زمانًا طويلًا، وكانت أعظم أسباب شقائه ودواعي عَنائه، اثنَين عظيمَين وهما: أوّلًا اعتقاده القديم في الأرض أنّها مركز تدور حوله الأفلاك، وثانيًا اعتقادهُ في نفسه أنّه من أصل سماويّ، فأهبطَهُ الخالق من فسيح جِنانه (ولماذا)، وأسكنه ضيقَ أرضه وإنّما خلق له كلّ شيء من منظور وغير منظور. وعلى هذين الاعتقادين نشأ الإنسان في الأخلاق والعادات والسياسة. فتَقوُّضُ هذين الركنَين يَلزَم منه انتقاض البنيان العظيم الّذي شادهُ الإنسان عليهما، ولذلك كان انتشار الحقائق المخالفة لمألوف الناس صعبًا جدًّا. فكوبرنيكوس وكِبلر وغَليلي سَحَقوا بتعاليمهم الأفلاك البلّوريّة الّتي أخلقتها أوهام الأقدَمين، وأصلحوا علم الهيئة من هذا الخطإ المبين، وقرّروا أنّ السماوات ليست قُبّة زرقاء مرفوعة فوق الأرض ومرصّعة بمسامير من ذهب، وأنّ الجَلَد ليس فاصلًا يَفصِل المياه الّتي فوق الجَلَد عن المياه الّتي تحت الجَلَد كما توهّم أسلافنا، وإنما هي فضاء فسيح تسبح فيه الأجرام السماويّة، ومنها أرضنا هذه، المتحرِّكة حول الشمس خلافًا لما كان يُظَنّ من أنّ الأرض ثابتة والشمس تدور حولها خدمة لها، وأنّ العوالم خاضعة في مجراها لسُنَن ثابتة، لا معلَّقة تُمسِكها يد خفيّة وتدبّرها كما تشاء وبحسب ما لها من الأهواء. ولا يَخفى عنك ما اقتضى نشر هذا التعليم من العناء، وما اعتَرض في سبيله من الموانع، وما أوجَبَ على ذويه من الاضطهاد، حتّى بلغ ما بلغ إليه من الانتشار، وقبل أن سَكَنَ كلُّ ثائر ضدّه وقَعَد كلّ قائم عليه. ولا يَخفى عنك ما أوجب

أيضًا من الثورة في تاريخ الإنسان، فشمّر الإنسان عن ساعد الجِدّ وأرسل طَرْفَه إلى الأفلاك يستجليها نواميسَها ويستقصيها مادّتَها، ومدّ يده إلى جَوف الأرض يستلبها كنوزَها ويستكشفها أسرارَها. فانجلت له غوامض الطبيعة وانكشفت له أسرار الكيمياء، وعَرَف الموادّ والعناصر وما لها من الشرائع وما حَوَته من الخصائص، ودان له النبات، وذَلّ له الحيوان، وانكشفت أسرار البيولوجيا، وبرزت دفائن البَلِيُنتولوجيا، فسأل عن أصل الحياة في آثارها.

ما الفضل في معرفة أصل الإنسان بأقلّ من ذلك. ومَرجِع هذا الفضل إلى لامَرك وداروين اللذَين ردّا الإنسان "الهابط من السماء والّذي لا يزال يصبو إليها" إلى مقامه الحقيقيّ في الطبيعة. ولمّا انتشر هذا المذهب قامت عليه قيامة أصحاب التقليد، المحافظين على المقرَّر وإنْ كان خَطاءً، الكارهين لكلّ مُستجِدّ وإنْ كان صوابًا. على أنّ سرعة انتشار هذا المذهب، مع ما هو عليه من الحداثة، يتبيّن منها ما له من القيمة الصحيحة، والحركة الّتي أنارها في الخواطر ليس لها مثيل في تاريخ الإنسانيّة. وقد ظهرت مفاعيلها، ويُنتظَر منها شيءٌ كثير في المستقبل. فإنّها لا تقتصر على تقرير هذه الحقيقة، بل لا بدّ لها من تغيير الإنسان تغييرًا جوهريًّا بحيث يتجدّد كلّيًّا كأنّه وُجِد وجودًا جديدًا، فتتغيّر أخلاقُه وفلسفته وسياسته وشرائعه وحكوماته، وغير ذلك ممّا يتعلق بهيئته الاجتماعيّة.

ولا يَسْبِقْ إلى فهمك، على سبيل الجِدّ أو المُزاح، أنّ هذا التغيير تكون نتيجته رجوع الإنسان إلى الأخلاق الوحشيّة أو، كما قالت إحدى السيّدات الإنكليزيّات لداروين: "إنّ الساعة الّتي يتأيّد فيها هذا المذهب يَنتقض بنيانُ الفضيلة في الشرّ". كلّا بل بالضِدّ من ذلك، يقوى بنيان الفضيلة، ويستقيم أمرها عمّا هي اليوم عليه، إذ هي اليوم غائيّة، لا يَعمَلها الإنسان إلا خوفًا من عِقاب أو طمعًا بالثواب. وأمّا تلك فتكون اضطراريّة قياسيّة لاستقامة أحكام العقل بميزان العلم الصحيح. (ولا يُوهِمَنّك ما جاء في إحدى المجلّات، وقد قسّمت الصدق إلى أربعة أقسام منها اثنان، صدقٌ بالفطرة وصدقٌ بالخوف من الدين، مفضِّلة هذا الأخير على الأوّل تفضيل الشرّير المغلول، الّذي لا يقدر على عمل الشرّ لتقيّده، على الصالح المطلَق الحرّيّة، الّذي إنّما يصنع الصلاح لأنه تعوّده. ولا أعلم كيف صحّ في قياسها هذا التفضيل، ولعلّ السبب ما نحن في صدده). ولا يَخفى عليك أنّ مصائب الإنسان الكثيرة الألوان منشأها الجهل، ولولا الجهل لما رأينا الزارع، الّذي هو أهمّ أركان الهيئة الاجتماعيّة، يتضوّر جوعًا، حالَ كونِ المِلك يكاد ينشقّ من تُخَم. ولولا الجهل لما سَنَّ الناس الشرائع الّتي يَهضِم بها الكبير حقوق الصغير (وَلَمَا رأيتَ بعضَهم يُعربِد علينا كالبعير)، وَلَمَا كَثُر تحامُل الناس بعضهم على بعض، وَلَمَا فشا الكذب في نوع الإنسان، وطال لسان الرِياء وقَصُر لسان الحرّيّة، وزاد الشرّ في بني البشر. فالإنسان كالشجرة لا تستقيم إذا نمت عوجاء ولا تَعوَجّ إذا نمت مُقوَّمة، لأنّ صفات الإنسان تنمو فيه قويمة إذا استقامت بالمبادئ الصحيحة، ومُعوَجّة إذا تعوّجت بالمبادئ الكاذبة. فإذا كانت مبادئ الإنسان صحيحة كان صحيحَ القياس صحيحَ الحُكم، وإلّا فإن كانت فاسدة كان فاسدَ القياس فاسدَ الحكم؛ قضيّةٌ مُسلَّمة لايَصِحّ فيها خلاف. وكأنّي بك وقد تأمّلْتَ صحّة هذا القول تنقبض نفسُك يأسًا إذ تَقنَط من صلاح الهيئة الاجتماعيّة لعلمك أنّ الحقائق سلطانُها قليل، وأنّ السائد إنّما هو سلطان الأوهام. نعم، إنّ صلاح الهيئة الاجتماعيّة صلاحًا تامًّا عامًّا لا يكون إلا إذا كان العلم الصحيح تامًّا عامًّا، ولا بدّ منه يومًا ما، إلّا أنّ ذلك الزمان بعيدٌ جدًّا، وربّما لَزِم له مئات من الأجيال، لأن إزالة ما رَسَخ في العقل من المبادئ في ألوف من الأجيال ليست بالأمر السهل، على أنّ ما لا يُنال كلّه لا يُترَك كلّه، والطَفرة في كل شيء مُحال.

فانتقال الإنسان من الجهل التامّ إلى العلم التامّ يستحيل في نظام هذا الكون دُفعةً واحدة إلّا على سبيل المعجزات من الحقيقة. فلا بدّ إذًا من السير البطيء في ارتقاء دَرَج الكمال. فحال الإنسان من ذلك أدبيًّا كحاله طبيعيًّا، فهو لم يوجَد كما هو الآن دُفعةً واحدة، بل اقتُضِي له ملايين من السنين حتّى خرج من الحيوانيّة إلى الإنسانيّة. وهكذا لا بدّ له، في قطع المسافات البعيدة الّتي تَفصِل بين أحواله الأدبيّة، من السَير البطيء المُتمهِّل.

شبلي الشميّل،

"في أصل معرفة الإنسان" من **الحقيقة وهي رسالة تتضمَّن ردودًا لإثبات مذهب دارون في النشوء والارتقاء**، في **المجموعة**، الجزء الأوّل، **فلسفة النشوء والارتقاء**، (الطبعة الأولى ١٩١٠)، طبعة جديدة، ، بيروت، دار مارون عبّود، ١٩٨٣، ص ٢٧١-٢٧٤.

###